الكبريتُ الأحمرُ والإكسيرُ الأكبرُ
في معرفة
أسرارِ السلوكِ إلى ملكِ الملوك

تأليف
سيدنا ومولانا
عبد الله بن أبى بكر العيدروس
تحقيق
دكتور محمد سيد سلطان
جامعة الأزهر الشريف

الناشر : دار جوامع الكلم ـ ت : ٥٨٩٨٠٢٩

الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر

فى معرفة

أسرار السلوك إلى ملك الملوك

المعبر عنه

بالدر والجوهر

تأليف

سيدنا ومولانا الأستاذ : محيى النفوس ، سلطان الملأ

عبدالله بن أبى بكر العيدروس

نفعنا الله به وبعلومه فى الدارين بجاه سيد الكونين آمين

قال فيه :

عين الأعيان ، وعمدة الزمان ، وقدوة أهل العرفان

سيدنا ومولانا الحبيب عيدروس بن حسين بن أحمد العيدروس

إذا أردت أن تسمو وتفخر   وتفهم سرّ معنى الله أكبـــر

فشمر داعيا فى كل حـين   وطالع يافتى الكبريت الأحمر

الناشر : دار جوامع الكلم - ١٧ شارع الشيخ صالح الجعفرى الدراسة - القاهرة -

تليفون : ٥٨٩٨٠٢٩



مقدمة الناشر :

الحمد لله مدبر الملك والملكوت ، المنفرد بالعزة والجبروت ، الذى صرف أعين ذوى القلوب والألباب ، عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب ، فلم يعبدوا إلا إياه علماً بأنه الواحد الفرد الصمد رب الأرباب .

والصلاة والسلام على سيدنا محمد قامع الأباطيل ، الهادى إلى سواء السبيل ، وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً .

أما بعد ،،

يقول الحق - تبارك وتعالى - فى كتابه العزيز :

﴿ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيراً ﴾ [الفرقان / ٥٩]

وها هى - دار جوامع الكلم - تستمر فى نشر الكتاب الصوفى للقارئ الكريم وبين أيدينا هذا الكتاب «الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر فى معرفة أسرار

السلوك إلى ملك الملوك» .

وهو جوهرة ثمينة ودرة غالية بيّن فيه المؤلف - العارف بالله تعالى - السيد «عبدالله بن أبى بكر العيدروس» كيفية السلوك فى البدايات ، وذكر نماذج من علم القلوب ، وبعض الأحوال التى تثمرها المقامات ، وما إلى ذلك من آداب صوفية ومعارف قلبية .

نسأل الله الكريم رب العرش العظيم أن ينفعنا بهذه العلوم ، وأن يعلمنا ما ينفعنا وينفعنا بما علمنا ، إنه على كل شئ قدير ، إنه نعم المولى ونعم النصير .

دار جوامع الكلم

جماد آخر ١٤٢٣ - هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

خطبة الكتاب :

﴿ صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ (١) .

الحمد للَّه الذى أبرز من كينونية كن لطائف الأرواح الكليات ، وأخرج من خدور الغيوب شموس المعارف والحقائق الإلهيات ، وأطلع من بحار النور الأعلى جواهر أنفاس العقول النورانيات ، وأحكم أحكام دوائر الكائنات بأسرار بركات معانى محاورات حروف الأسماء الربانيات ، أبدع بدائع صنائع المصنوعات فى معانى ألواح النفوس الكليات ، ورسمها بأقلام الأرواح الكليات ، المصوّر الذى رسم كنه معانيها فى روح نفس العارف بالكليات والجزئيات ، المشاهد لستر روح عزيز النفس الوحدة بالكلية الحاوية لذوات أنفس أرواح الكائنات ، المتخلق بأخلاق تنبيهات الأسماء الربانيات ، المستهلك فى معانى أسماء الذّات وأسماء الصفات ، والمستغرق فى بحار معانى معنوى بركات الآلاء والآيات

---

(١) الشورى / ٥٣ .

الربانيات، فسبحان اللّه الذى عدمت العقول ما تصفه به، فبقيت كليلة عن إدراك الذات والصفات ، وافتقرت إلى الإقرار بالعجز فخضعت لكبريائه ذليلة ذل الكائنات المحدثات ، اخترع العقول والأرواح الكليات ، وأبدع الصور والأشباح وجميع الموجودات روحانيات وبرزخيات وجسمانيات ، وصلّ يارب على روح الكائنات ، وأفضل المخلوقات ، سيدنا وحبيبنا محمد صلى اللّه عليه وسلم ، وعلى آله وصحبه أفضل الصلوات الباقيات الصالحات .

كيفية سلوك الطريق

سلوك الطريق على الحقيقة بالعبادات أو بالمقامات أو بالأحوال أو بالأنفاس أو بالمعارف أو بضرب الأمثال أو بالامتثال وحفظ القلوب أو بالمقابلات أو بالقابليات أو بالمناظرات والمجالسات أو بالمحبات أو بالمخالطات والمودات مع حسن الظن ، وهو من الأخلاق المحمديات ، أو بالمذاكرات أو بالتصديق والاعتقادات أو بالانقطاع والخدمة أو بالتربية أو بالعلوم اللدنيات .

وهذا لايمكن إلا بقصد شيخ عارف سالك مجذوب ، واصل محبوب ، واصل موصول عارف بالنقل والعقل ، عارف بالله تعالى وبنفسه حاضر غائب فى الخلوات والجلوات بقلبه فى عالم الشهادة والغيوب .

وأجمع مشايخ الصوفية على أن أكثف الحجب بين العبد وبين الله النفس الأمارة بالسوء ، وهى محل الخصال الذميمة ، ومن أكثف الخصال الذميمة العجب مع محبة الدنيا ، وأظلم الظلمات الحسد والغيبة والنميمة ، واتفق المشايخ الصوفية على النهى عن مخالطة الأشرار وصحبة الفسقة ومعاشرة النسوان .

لابد من مصاحبة شيخ عارف

واتفق المشايخ الصوفية على أن بناء أمرهم على : -

١ - قلة الطعام .

٢ - وقلة الكلام .

٣ - وقلة المنام .

٤ - واعتزال الأنام .

وما تحصل الرياضة والخلوات وجميع المطالب

والمقامات إلا بالشيخ العارف المعبر عنه بالإنسان الكامل .

نظم فى اعتقاد أهل السنة

اعتقاد أهل السنة مانظمه الشيخ عبد اللّه بن أسعد اليافعى ، وهى هذه الأبيات :

علا ربنا عن كيف أو أين أو متى ... وعن كلّ ما فى بالنا يتصوّر
ونقص وشبه أو شريك ووالد ... وولد وزوجات هو اللّه أكبر
قديم كلام حين لاحرف كائن ... ولا عرض حاشا وجسم وجوهر
مريد وحىّ عالم متكلم ... قدير على ماشا سميع ومبصر
بسمع وعلم مع حياة وقدرة ... كذلك باقيها إلى الكل مصدر
وليس عليه واجب بل عقابه ... بعدل وعن فضل يثيب ويغفر
بحكم شرع دون عقل وقد قضى ... بخير وشر للجميع مقدر
ورؤيته حق كذاك شفاعة ... وحوض وتعذيب وقبر ومنكر
وبعث وميزان ونار وجنة ... وقد خلقا ثم الصراط ويصدر
عظيم كرامات عن الأوليا وقد ... محا شرعنا العالى الزكىّ المطهر
شرائع كل المرسلين وأحمد ... خيار الورى المولى الشفيع المصدّر
وأصحابه خير القرون وخيرهم ... على وفق ما قد قدموا ثم أخروا
نجوم الهدى كل عدول أولو الندا ... فضائلهم مشهورة ليس تنكر
وأفضلهم صديقهم صاحب العلا ... ورابعهم فى الفضل ذو الفضل حيدر
وتخليد نار ليس إلا لكافر ... وقبلتنا من أمّها لا يكفر

حقيقة التوحيد عند الصوفية

التوحيد : نفى التقسيم لذات لامثل له فى ذاته ، ونفى التشبيه عن حقه وصفاته ، ونفى الشريك عن أفعاله ومصنوعاته ، قال العلماء بالله وجميع المشايخ الصوفية : أشرف كلمة فى التوحيد ما قاله سيدنا أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه : (فسبحان الذى لم يجعل للخلق سبيلا إلى معرفته) ، وقال العلماء بالله وجميع المشايخ الصوفية : التوحيد الذى انفرد به العلماء بالله هو إفراد القدم ونفى الحدوث والخروج عن الأوطان وقطع المحابّ وترك ما علم وجهل ، وأن يكون الحق مكان الكل ، والتوحيد أيضاً عند بعضهم : انبساط الهيئات لا تقول لى وبى ومنى ، وشرح الجميع ، وحقيقة التوحيد : ما قال الأكابر من الصوفية : وهو محو البشرية ، وتجرّد الإلهية .

فضل التقوى

اعلم أن تقوى الله هى التى عليها مدار السعادة الذى لا يصح البناء إلا به فى جميع العادات ، وكل السعادات محلها العاقبة، وقد قال الله تعالى ﴿ والعاقبة للمتقين ﴾

والأصل الذى يصح عليه بناء العمل حتى يتم ويتقبل هو تقوى الله عز وجل ، قال الله تعالى ﴿ إنما يتقبل الله من المتقين ﴾ قال العلماء بالله العارفون وجميع الصوفية : الأصل المذكور المعبر عنه بالتقوى هو الأصل الذى لا ينهدم عليه البناء على تعاقب الدهور ، إذ هو أصل الدين الذى صاحبه لايزال يرتقى فى رياض الأسرار والنعيم ويرتقى فى مراقى الشرف فى عالم الجلالة.

وخلعات التقوى الظاهرة والباطنة خمس خلعات رحمانيات محمديات :

الخلعة الأولى : لباس الأعضاء بامتثال الأوامر ، واجتناب المناهى.

الخلعة الثانية : لباس القلوب بالمقامات وهى التوبة والورع والزهد والصبر والفقر والشكر والخوف والرجاء والتوكل والرضا مع الصدق ودوام الحزن لله تعالى ، والتحلى بالصفات الحميدة، والتخلى عن الصفات الذميمة.

الخلعة الثالثة : لباس الأرواح بالأذواق والمحبة والشوق

والهيبة والأنس والرضا والقرب والشكر والوصل والوصول والفناء والبقاء.

الخلعة الرابعة : لباس الأسرار بالوحدانية ، والوحدانية والتوحيد فى الهوية ومعرفة الوحدانية ، فصارت هذه الخلع لباس الإنسان الكامل على الشريعة والطريقة والحقيقة .

الخلعة الخامسة : لباس سرّ السرّ الذى لا يطلع عليه إلا الحق سبحانه وتعالى ، وهى الخلعة الكبرى المعبر عنها بخلعة التفريد المرصعة بالدر والجوهر ، فمن وهب ذلك من حضرة رب الأرباب سبحانه وتعالى نال سر الخلافة ، خلافة آدم عليه السلام بتعلمه علم الأسماء أسماء الله وصفاته بتعليم الله إياه بأن جعل ذات آدم وصفاته بالسوية مرآة قابلة لتجلى صفات جماله وجلاله تبارك وتعالى كما قال صلى الله عليه وآله وسلم « إن اللّه خلق آدم فتجلى فيه فبالتجلى علَّم التخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته» وهذا هو سر الخلافة على الحقيقة ؛ لأن المرآة تكون خليفة للمتجلى فيها .

الخاصة من جميع الناس هم أهل الإيمان، وخاصة العلماء العارفون، وخاصة أهل المعرفة العقلاء العاملون على الرضا أهل الخلع الإلهية، وإن قلّت روايتهم، وقلّ في العلم نطقهم، وخمل في الناس ذكرهم، فبالإيمان تنال النجاة من النار، وبالعلم تنال الدرجات في الجنان، وبالمعرفة يقربون في مقعد صدق، وبالعقل يفهمون عن الله تعالى الإشارة، ويؤذن لهم في الشفاعة. قال العلماء بالله العارفون ومشايخ الصوفية: ركعة من عارف أفضل من ألف ركعة من عالم، ونفس من أهل حقيقة التوحيد أفضل من عمل كل عامل وعارف.

من هو الصوفي

الصوفي العالم بالله: هو الذي يضع الأشياء في مواضعها، ويدبر الأحوال والأوقات كلها بالعلم، ويقيم الخلق مقامهم، ويقيم الحق مقامه، ويستر ما ينبغي أن يستر، ويظهر ما ينبغي أن يظهر، ويأتي الأمور في مواضعها بحضور عقل وصحة توحيد وكمال معرفة ورعاية صدق وإخلاص، وهم أهل الشريعة والطريقة والحقيقة.

الملامتية والقرندلية والفرق بينهما

ومن طوائف الصوفية قوم يسمون الملامتية، فالملامتيّ الصادق له حال شريف ومقام عزيز متمسك بالآثار، ومتحقق بالإخلاص والصدق، وليس مما يزعم المفتونون بشيء الذين يسمون أنفسهم ملامتية وليسوا بملامتية، ينتهجون والعياذ بالله مناهج الإباحة، وهذا غرور.

ومنهم طائفة يسمون القرندلية، فالقرندليّ الصادق له حال شريف، والفرق بين القرندليّ الصادق والملامتي: أن الملامتي الصادق يسعى فى كتم العبادة، ويتمسك بكل أبواب الخير، ويرى الفضل فيه، ولكن يخفى الأعمال والأحوال، ويوقف نفسه موقف العوامّ فى هيئته وملبوساته وحركاته وأموره ستراً للحال ؛ لئلا يتفطن له، وهو مع ذلك متطلع إلى طلب المزيد باذلاً مجهوده فى كل ما يتقرّب به العبيد. وعلامة الملامتى هو الذى لا يضمر للمسلمين شراً ولا يظهر لهم خيراً، وعلامة القرندلى الصادق هو الذى لا يتقيد بهيئة ولا يبالى بما يعرف من حاله ومالا يعرف ولا يتعطف إلا على طيبة

القلوب، وهو رأس ماله، أعنى رأس ماله طيب قلبه مع ربه، ولم يسلك طريق الإباحة المعبر عنها بالغرور.

من حرمة المؤمن حسن الظن به

قال العلماء بالله والأئمة: مثل الإمام عبد الله بن أسعد اليافعى وغيره من العلماء. قال الإمام عبد الله بن أسعد فى كتابه [نشر المحاسن] قلت: ولعظمة حرمة المؤمن إذا صدر منه كفر صريح يتعمده أو ارتدّ عن الإسلام والعياذ بالله لا يبادر إلى قتله، بل يستتاب وجوباً واستحباباً على خلاف فى ذلك، فكيف بمن لا يعلم تعمد الكفر منه، ولفظه يحتمل وجوهاً من إرادات التخصيص وغيره، ويحتمل أيضاً السهو وسبق اللسان إلى غير ذلك، فينبغى التثبت، وقد صرّح الإمام الغزالى أن ترك قتل ألف نفس ممن يستحق القتل أهون من سفك محجمة من دم المؤمن.

فى الصوفية: المتشبه، ومتشبه المتشبه. الصوفى السالك الواصل.

والمتشبه المتمسك بطريقهم المؤمن بطريقهم المحب لهم.

ومتشبه المتشبه المؤمن بطريقهم المحب لهم، ومن أحب قوماً كان هو منهم، وفى الحديث الصحيح «المرء مع من أحب»[1].

السلوك فى البدايات يسبب الوصول للحضرة القدسية

يسبب سلوكهم فى البدايات للطريق الوصول للحضرة القدسية. أعنى بهم القوم الصوفية لما أريد بهم التخصيص، وسبقت لهم بالتقريب السعادة ليسكن فى قلوبهم المنيرة نار الإرادة فاحترقوا شوقاً إلى نار القرب، وتمزقوا فى الهوى وخرجوا عن العادة، فرفضوا الحظوظ من المنكح والمطعم والمشرب والملبس والمسكن والمركب وجميع أنواع الدنيا والخل والجاه الذى رفضُه أصعب الأشياء، بل رفضوا جميع ما سوى الله تعالى وجعلوه وحده هو المطلب، وهجروا المنام وجانبوا الكلام، واشتعلت فى قلوبهم نار الغرام هى فى الأحشاء تلتهب، ثم تفاوتوا فى الهوى وخلع العذار على حسب تفاوت

(١) رواه البخارى ومسلم وأبوداود والترمذى وأحمد وغيرهم.

النار، فمنهم من اضطرمت فيه نار المحبة فقلقلته لذعة الهوى، وأزعجته لوعة الجوا، فليس له قرار، بل هو هائم في البرارى والقفار، ومنهم من سكن الخرابات بقلب عامر، ومنهم من جاور بقلب حيّ للموتى فى المقابر، فذلك مستأنس بوحش الفلا، وذلك ناظر إلى خراب الدنيا، وذا معتبر بمنازل الموتى.

قيل: لبعضهم من أين أقبلت ؟ قال: من عند هذه القافلة النازلة قيل له: فماذا قلت لهم، وماذا قالوا لك؟ قال قلت: متى ترحلون ؟ قالوا حين تقدمون.

وسئل بعضهم عن إقامته بالمقابر، قال: أجاور قوماً إن حضرت لم يؤذونى وإن غبت لم يغتابونى.

وقيل لآخر: أين مأواك؟ قال: فى دار قد استوى فيها العزيز والذليل، فقيل له أين هذه الدار؟ قال: المقابر، قيل له: ما تستوحش فى ظلمة الليل؟ فقال إنى أذكر ظلمة اللحد ووحشة القبر فتهون علىّ ظلمة الليل، قيل له: فربما رأيت شيئاً فى المقابر تنكره ؟قال: ربما، ولكن فى هول الآخرة ما يشغل عن المقابر.

أثر القلب فى الصلاح والفساد

فى شرح أنموذج من علم القلب ؛ لأنه المضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد، وهى القلب، كما فى الحديث المصطفوى المحمدى عليه أفضل الصلاة والسلام، وإنما سمى القلب قلبا ؛ لأنه سريع التقلب بتقليب مقلب القلوب : كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء» ولأنه خلق فى قلبه عالمين : الغيب والشهادات هما الروح والجسد، وقد تولد من ازدواجهما، فصورته متصلة بالجسد وروحه متصلة بالروح ،وقد عبر النبى صلى الله عليه وآله وسلم عن عالم الغيب والشهادة بإصبعين بأنهما صورتا صفتين لطف الله وقهره ،وقد ورد فى الحديث، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن إن شاء أقامها وإن شاء أزاغها»[1] قوله : إن شاء أقامه باستيلاء صفات الروحانية عليها إقامة متوجهاً إلى

---

(١) رواه الترمذى وابن ماجة وأحمد .

حضـرة العزة، وإن شـاء أزاغـه بغلبـة الصـفـات الحيـوانيـة عليه أزاغـه معرضـاً عن الحق متوجهـاً إلى الدنيا وشهـواتها واستيفاء لذاتها وطلب جاهها، فإن من سنتـه- تعالى- لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم، ولا يرفع إلا بعد أن يرفع العبد أعماله الجسدانية كما قال الله تعالى ﴿ وإذ قـال مـوسى لقـومـه يا قـوم لم تؤذننى وقـد تعلـمـون أنى رسـول الله إليكـم فلمـا زاغـوا أزاغ الله قلوبـهـم ﴾[1] عن الإيمان، وكذلك إقامة القلوب إنما تكون بإقامة شرائط العبودية فى تصفية القلب وتنعيته فى الترقى إلى المقامات الكسبية المثمرة للأحوال الوهبية المثمرة للأنفاس الغيبية التى هى أرق وألطف من الأحوال الوهبية والأنفاس بترويح القلوب بلطائف الغيوب، وصاحب الأنفاس أرق وأصفى من صاحب الأحوال، وكان صاحب المقام والوقت مبتدى، وصاحب الأنفاس منتهى وصاحب الأحوال بينهما، فالأحوال وسائط، والأنفاس نهاية الترقى، فالأوقات لصاحب القلوب، والأحوال لأرباب الأحوال، والأنفاس لأهل السرائر، وأجمع العارفون على

(١) الصف / ٥ .

أن أفضل العبادات حفظ الأنفاس مع الله، ويكون خروجها ودخولها بلفظ الجلالة، وهى قولك: «الله الله»، أو ذكرك «لا إله إلا الله»، وهو الذكر الخفى الذى لا تتحرّك به الشفتان: أعنى أفضل العبادات حفظ الأنفاس مع الله : أى الأنفاس الهوية الجسمانية يكون دخولها وخروجها على أفضل الرضا والذكر ؛ لأنها جواهر الأعمال المثمرة لمعارف الأسرار والأنوار، هذا معدود من المقامات؛ أما الأنفاس التى هى أرق وأصفى من الأحوال هى ترويحات غيبيات لدنيات روحانيات وهيبات من ينبوع ﴿ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ مَن يَشَاءُ ﴾[1]، ﴿ وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً ﴾[2] أعنى أنها عار بالمشاهدة والمكاشفة الواردة على ساحات القلوب من عوالم الغيوب ترويحاً للقلوب إلى مقلب القلوب، وهى دقائق حقائق لطائف ترويح قلب المحب المحبوب المستمد من ينبوع ﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ ﴾[3] الذى لم يزل سرّ روحه معتكفاً فى حضرة مقلب القلوب.

(١) آل عمران / ٧٤.
(٢) الكهف / ٦٥.
(٣) المائدة / ٥٤.

مقامات السالكين وثمارها

هذه عشر مقامات مكاسب تثمر عشر أحوال مواهب بقدرة الواهب.

المقام الأوّل: التوبة :-

فمن لا توبة له لا مقام له، وسبب توبة الشيخ العارف بالله ذى النون المصرى أنه قال وقد سئل عن أصل توبته: خرجت مرة من مصر إلى بعض الطريق فنمت فى الطريق وفتحت عينى وانتبهت فإذا أنا بقنبرة عمياء سقطت من شجرة فانشقت الأرض فخرجت منها سكرجتان (هوما يشبه الإناء) إحداهن من ذهب والأخرى من فضة فى إحداهن سمسم، وفى الأخرى ماء فأكلت من هذا وشربت من هذا، فقلت: حسبى .ولزمت الباب حتى قبلنى.

المقام الثانى الورع :-

رجع الشيخ إبراهيم بن أدهم من بيت المقدس إلى البصرة فى ردّ تمرة، ورجع أبو يزيد وهو طيفور بن عيسى بن شروشان البسطامى من بسطام إلى همذان فى ردّ نملة وجدها فى قرطم اشتراه ممن هناك، وقال غرّبتها عن وطنها.

المقام الثالث : الزهد :-

أعنى الزهد فى الحرام، وهو فرض على كل مسلم، حكى أنه تحارب ملكان من ملوك اليمن فى قديم الزمن، فغلب أحدهما صاحبه وقتله وشرّد أصحابه وهيئ له السرير وزينت له دار الملك وتلقاه الناس ليدخل، فبينما هو ببعض السكك يقصد دار الملك إذا وقف له رجل ينسب إلى الخير فأنشد :

تسمع من الأيام إن كنت حازماً فإنك فيها بين ناه وآمر

وكم ملك قد ركم الترب فوقه وعهدى به بالأمس فوق المنابر

إذا كنت فى الدنيا بصيراً فإنما بلاغك فيها مثل زاد المسافر

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه فما فاته منها فليس بضائر

فقال صدقت : ونزل عن فرسه ورقى الجبل، وأقسم على أصحابه أن لا يتبعه أحد، فكان آخر العهد به، رحمه الله تعالى.

المقام الرابع: مقام الصبر :-

حكى عن بعضهم أنه راض نفسه بالسهر بالليل

وصبر عليها حتى صار له عادة فأقام على ذلك مدة من الزمان كما شاء الله عز وجل، فغلبه النوم فرأى الحق سبحانه عز وجل فى النوم ، فكان متكلف النوم بعد ذلك، فقيل له فى ذلك، فقال :

رأيت سرور قلبى فى منامى فأحببت التنفس والمناما

المقام الخامس: الفقر :-

حكى بعضهم أنه قال : كنا بعسقلان وشاب يغشانا يتحدث معنا فإذا فرغنا قام إلى الصلاة يصلى فودّعنى يوماً وقال : أريد الإسكندرية فناولته دراهم فأبى أن يأخذها فألححت عليه فألقى كفاً من الرمل فى ركوته واستسقى من ماء البحر فقال : كله فإذا هو سويق وسكر كثير، فقال : من كان هذا حاله ومعه مثل هذا لا يحتاج إلى دراهمك .

وحكى بعضهم أنه قال : رأيت القيامة قد قامت ويقال أدخلوا محمد بن واسع ومالك بن دينار الجنة، فنظرت أيهما يتقدّم فتقدّم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدّمه فقيل أنه كان له قميص، ولمالك قميصان .

المقام السادس: الشكر :-

قال العارفون: هو اعتراف اللسان بالنعمة، واتصاف البدن بالخدمة حكى أنه لما بشر إدريس عليه السلام بالمغفرة: سأل الحياة، فقيل له فى ذلك، فقال لأشكره فإنى كنت أعمل قبله للمغفرة، فبسط الملك جناحه، واحتملته الملائكة إلى السماء.

المقام السابع: الخوف :-

وكان أبو بكر الصديق رضى الله تعالى عنه: إذا تنفس يشم منه رائحة الكبد المشوية، وكان بعضهم إذا غلب عليه الخوف فى الخلوة رجع إلى السوق ولم يزل كذلك إلى أن تمكن وقوى وآذن له فى الاجتماع والصحبة، وصحبه الناس وانتفعوا به، ومن ذلك عن بعضهم أنه كان إذا غلب عليه الحال ركب فرسه وأتى امرأته فيسكن ما به.

المقام الثامن: الرجاء :-

قال الله تعالى ﴿ لا تقنطوا من رحمة الله ﴾[1] قال

(١) الزمر / ٥٣.

سبحانه وتعالى ﴿ ورحمتى وسعت كل شىء ﴾[1] وفى رواية للبخارى «رحمتى سبقت غضبى» وروى عن بعض الفقهاء كان من الوكلاء على باب القاضى، فكان يقرأ فى المصحف ويمسح به وجهه فى آخر عمره، فرآه بعض الناس بعد موته فقال: ما فعل الله بك؟ فقال: قال لى : يا شيبة السوء جئتنى بالذنوب الموبقات، فقلت يا رب ما هكذا بلغنى عنك، قال: فما بلغك؟ قلت: الكرم، قال : اذهب فقد غفرت لك.

المقام التاسع: التوكل على الله :-

قال الله تعالى ﴿ ومن يتوكل على الله فهو حسبه ﴾[2] قال العلماء: أى كافيه ومنجيه من كل كرب فى الدنيا والآخرة إذا فوض أمره إليه. قال ذو النون المصرى: التوكل ترك تدبير النفس، والانخلاع عن الحول والقوّة.

المقام العاشر: الرضا :-

قال تعالى ﴿ رضى الله عنهم ورضوا عنه ﴾[3] وقال النبى صلى الله عليه وآله وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله رباً، وبالإسلام ديناً»[4] هذه عشر مقامات،

(١) الأعراف / ١٥٦ .
(٢) الطلاق / ٣ .
(٣) البينة / ٨ .
(٤) رواه مسلم وأحمد والترمذى.

وما بعدها إلا ذكر المشايخ. قال المشايخ رضى الله تعالى عنهم: الحال معنى يرد على القلب من غير اجتلاب ولا اكتساب من طرب أو حزن أو قبض أو بسط أو شوق أو انزعاج أو هيبة أو اهتياج، فالأحوال مواهب، والمقامات مكاسب، والأحوال تأتى من عين الوجود، والمقامات تأتى ببذل المجهود، وصاحب المقام ممكن فى مقامه، وصاحب الحال مرقى فى حاله.

ما تنبنى عليه المقامات والأحوال

والأصل فى الأحوال التى تبنى عليه ولا تصح إلا به المحبة كما أن أصل المقامات التوبة، فمن لا توبة له لا مقام له، ومن لا محبة له لا حال له، وإنما تنبنى عليهما المقامات والأحوال بعد كمالهما، فمن تاب توبة النصوح الصادق بصدق النية وشجن القلب أثمرت له محبة الله تعالى، وهى حالة يجدها العبد فى قلبه تلطف عن العبارة تحمله تلك الحالة على التعظيم لله وإيثار رضاه، وقلة الصبر عنه والاهتياج إليه وعدم القرار من دونه، ووجود الاستئناس بدوام الذكر له بقلبه.

ومن أحكم **(المقام الثانى مقام الورع)** بصدق القلب وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى، وهو الشوق والشوق عندهم احتراق الأحشاء وتلهب الأكباد، وعند بعضهم: ارتياح القلوب بالوجد ومحبة اللقاء بالقرب.

ومن أحكم **(المقام الثالث، وهو الزهد)** بصدق النية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى حالة الهيبة الوهبية، وهو خشوع النفس وخضوعها عند ظهور لائح الجلال والعظمة.

ومن أحكم **(المقام الرابع، وهو مقام الصبر)** بصدق النية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى، وهو الأنس، والأنس عندهم، ارتفاع الحشمة مع وجود الهيبة وعلامة الأنس بالله كلما ازداد ازدادت به المحبة والهيبة .

ومن أحكم **(المقام الخامس، وهو مقام الفقر)** بالصدق والنية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى وهو حال القرب. قال الله تعالى ﴿ واسجد واقترب ﴾[1] ومعنى القرب وهو قرب العبد أولاً بإيمانه وتصديقه ثم قربه بإحسانه وتحقيقه، وقرب الحق من العبد بما يخصه به

---

(١) العلق / ١٩ .

اليوم من العرفان، وفى الآخرة مما يكرمه من الشهود والعيان، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والامتنان.

ومن أحكم **(المقام السادس، وهو مقام الشكر)** بصدق النية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى، وهو حال الحياء، وهو وجود الهيبة فى القلب مع وحشة ما سبق منك إلى ربك.

ومن أحكم **(المقام السابع، وهو مقام الخوف)** بصدق النية، وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى وهو حال السكر، وهو عندهم استيلاء سلطان الحال.

ومن أحكم **(المقام الثامن، هو مقام الرجا)** بصدق النية وشحن القلب أثمر له الحال الوهبى، وهو الوصول.

والواصل عندهم أن لا يشهد العبد غير خالقه ولا يتصل بسره خاطر غير صانعه. قال المشايخ هو أن يكون العبد همه الله وشغله فى الله ورجوعه إلى الله، وعند بعضهم مكاشفات القلوب بمشاهدات الأسرار، والواصل لا يحجبه الحق عن شىء.

ومن أحكم (**المقام التاسع، وهو مقام التوكل والتوحيد**) بصدق النية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى وهو حال الفناء، والفناء عندهم: هو سقوط الأوصاف المذمومة. قال المشايخ: الفناء هو الغيبة عن الأشياء كما كان فناء موسى - عليه السلام - حين تجلى ربه للجبل.

ومن أحكم (**المقام العاشر، مقام الرضا**) بالصدق والنية وشجن القلب أثمر له الحال الوهبى، وهو مقام البقاء،و هو عندهم: بقاء الصفات المحمودة بعد فناء المذمومة. قال المشايخ العارفون: وصاحب البقاء هو الذى يكون فى مقام لا يحجبه الحق عن الخلق، ولا الخلق عن الحق، بخلاف الفناء. فإن صاحبه مستغرق بالحق عن الخلق.

فى معرفة السلوك بالمقامات القلبية ومعرفة الطرق، وهى ثلاث: الشريعة والطريقة والحقيقة.

تعريف: الشريعة والطريقة والحقيقة

وعند القوم: الشريعة كالسفينة، والطريقة كالبحر،

والحقيقة كالدر ، فمن أراد الدر ركب السفينة ، ثم شرع فى البحر ثم وصل إلى الدر ، فمن ترك هذا التركيب لم يصل إلى الدر . فأوّل واجب على الطالب هو الشريعة والمراد بالشريعة ما أمر الله ورسوله به من الوضوء والصلاة والصوم وأداء الزكاة والحج وطلب الحلال وترك الحرام ، وغير ذلك من الأوامر والنواهى : فليزين الرجل ظاهره بلباس الشريعة حتى يكون نور ظاهر الشريعة فى قلبه ،ويزيل من قلبه الظلمة الإنسانية فيتمكن للطريق والنزول فى قلبه والطريقة الأخذ بالتقوى وما يقربك من المولى من قطع المنازل والمقامات فلكل مقام طريقة وطرق المشايخ مختلفة فكل شيخ وضع طريقه على ما هو عليه ، ومن أحوالهم الحال والمقام ، فبعضهم طريقه الجلوس مع الناس وتربيتهم وبعضهم طريقه كثرة الأوراد من الصلاة والصوم ، وغيرها من العبادات ، وبعضهم وضع طريقه بخدمة الناس يحمل الحطب والحشيش على ظهره ويبيعه فى السوق ويتصدق بثمنه ، وعلى هذا لكل واحد منهم اختيار من الطرق . وأما الحقيقة فهى الوصول إلى المقصد ،

من الأحوال : الجمع والفرق وجمع الجمع والفرق الثاني

ومن الأحوال الجمع، والتفرقة وجمع الجمع، والفرق الثانى.

أما الجمع: فهو ما يكون من قبل الله -تعالى- من إظهار فهم ومعنى فى القلب وابتداء لطف وتوفيق.

والفرق: ما يكون من قبل العبد من أداء العبودية والسؤال، ولا بدّ للعبد من الفرق والجمع، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له، ومن لا جمع له لا معرفة له، وقوله تعالى ﴿ إياك نعبد ﴾ إشارة إلى الفرق ﴿ وإياك نستعين ﴾[1] إشارة إلى الجمع، وإذا خاطب العبد ربه بلسان نجواه إما سائلاً وإما داعياً أو شاكراً أو متضرعاً قام فى محل التفرقة، وإذا صفا بسره إلى ما يناجى ربه وينجيه فيما يخاطبه بأمر ونهى فهو فى مقام الجمع.

---

(١) الفاتحة / ٥.

قضاء الله تعالى وقدره في وقته. قال العارفون: الوقت سيف قاطع كما أن السيف قاطع فما يجرى عليه من قضاء الله - تعالى - وقدره فى الوقت لا يمكن خلافه.

معرفة المقامات من المنازل

والمنازل مختلفة، أولها اتباع الأوامر وترك المناهى، والآخر معرفة عيوب النفس تنقية النفس عن العيوب المذمومة عند الله والعيوب كثيرة، وأعظمها إعجاب الرجل بما فعل من الطاعات، والمنازل كثيرة يطول إحصاؤها، وشرط السالك أن لا يرحل إلى مقام حتى يستوفى المقام الأوّل، فإن ترك مقاماً قبل أن يستوفى حقه كان كالمريض يشرب المسهل قبل أن يصلح خلطه فإنه لا يفيد المسهل، بل يزيد عليه.

تعريف الحال عند الصوفية

الحالّ بتشديد اللام، هو ما نزل على القلب من طرب أو قبض أو بسط أو شوق أو ذوق أو غيرها. قال العارفون: الحال كالبرق، يعنى لا يبقى الحال بل يزول عن قرب، فإن بقى مع الرجل فهو حديث نفس وليس بحال.

من الأحوال : التواجد والوجد

ومن الأحوال التواجد والوجد، فالتواجد إظهار الوجد على نفسه، وطلب حصول الوجد فى نفسه كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «ابكوا، فإن لم تبكوا فتباكوا»[1]. والوجد ما يرد على قلبك من غير تكلف، والوجد من ثمرات الأوراد، فمن أوراده فى الطاعات يكون وجده أكثر.

من الأحوال : الوجود

ومن الأحوال الوجود، والوجود عبارة عن ثبوت سلطان الحقيقة فى قلب الرجل، وهذا لا يكون إلا بعد زوال الصفات البشرية من الغفلة والشهوة، ومن أحب شيئاً سوى الله - تعالى - يناقض الحقيقة، وبمقدار الوجود يحصل المجهود، وصاحب الوجود له صحو ومحو، فحال صحوة بقاؤه بالحق، وحال محوه فناؤه فى الحق، فهاتان الحالتان المتعاقبتان عليه، فإذا غلبك عليه يصول ويجول وبه يحول، قال صلى الله عليه وآله وسلم «فيما أخبر عن الحق سبحانه وتعالى فبى يسمع وبى يبصر».

---

(١) رواه ابن ماجة فى سننه.

وأما جمع الجمع فهو الاستهلاك بالكلية يعنى عما سوى الله تعالى، ومقام جمع الجمع أن يرى العبادة لله تعالى والجمع شهود الأغيار، فإنه يعنى يرى العبادة بتوفيق الله.

وأما الفرق الثانى فهو أن يردّ الرجل من حال المحو إلى حال الصحو فى وقت أداء الفريضة ليؤدى الفريضة، وهذا لطف من الله تعالى.

من الأحوال : الفناء والبقاء

ومن الأحوال الفناء، والبقاء ، والفناء أن تفنى الخصال المذمومة عن الرجل، والبقاء أن تبقى وتثبت الخصال المحمودة فى الرجل، والسالكون يتفاوتون فى الفناء والبقاء، فبعضهم فنى عن شهوته بفناء ما يشتهيه من الدنيا، فإذا فنيت شهوته بقيت نيته وإخلاصه فى عبوديته، ومن فنى عن الأخلاق الذميمة كالحسد والبغض والكبر، وغير ذلك بقى بالقنوت والصدق، فالخصال المحمودة والمذمومة ضدّان إذا فنى الرجل عن إحداهما بقى ضده.

ذلك الذوق، ثم الشرب، ثم الرىّ، فصفاء معاملاتهم توجب لهم ذوق المعانى، وصفاء منازلاتهم توجب لهم الشرب ، ودوام مواصلاتهم توجب لهم الرى، فصاحب الذوق متساكر: يعنى أنه أوّل السكر، وصاحب الشرب سكران، وصاحب الرى صاح، فمثاله العطشان، فمن به قليل عطش فهو صاحب ذوق، ومن به عطش كثير فهو صاحب شرب، وإذا روى وأخذ حظه من الشراب زال حرصه وقلقه الذى به من عطش فهو صاحب رىّ وصاحب صحو.

من الأحوال : المحو والإثبات

ومن الأحوال المحو والإثبات، فالمحو رفع العادات، والإثبات إقامة أحكام العبادات، وينقسم المحو إلى إزالته عن الظواهر ومحو الغفلة وإثبات المنازلات وإثبات المواصلات، والمحق يشبه المحو لكن المحق فوق المحو، لأن المحو يبقى له أثر، والمحق لا يبقى له أثر.

من الأحوال : الستر والتجلى

ومن الأحوال الستر والتجلى، فالتجلى نور ومكاشفة

سلطاناً وأدوم مكثاً، وأَذهب للظلمة.

من الأحوال : البوادة والهجوم

ومن الأحوال البوادة والهجوم، والبوادة ما يفجأ قلبك من الغيب على سبيل أذهله، إما موجب فرح أو ترح.

والهجوم ما يرد على القلب بقسوة الوقت من غير تصنع منك، ويختلف فى الأنواع على حسب قوة الوارد وضعفه.

من الأحوال : التلوين والتمكين

ومن الأحوال التلوين والتمكين، فالتلوين صفة أرباب الأحوال، والتمكين صفة أهل الحقائق، وما دام العبد فى الطريق فهو صاحب تلوين؛ لأنه يترقى من حال إلى حال، والتمكين أن يصل السالك إلى المقصد، وإذا وصل المقصد تمكن واستقر فى حاله ؛ لأنه لا حال بعد تلك الحال،وتلك الحال هى زوال البشرية وبقاء الحقيقة.

الضمائر، فقد يكون بإلقاء الملك، وقد يكون بإلقاء الشيطان ، وقد يكون أحاديث نفس، وقد يكون من قبل الله سبحانه وتعالى، فإذا كان من قبل الملك فهو إلهام، وإن كان من قبل الشيطان فهو وسواس، وإذا كان من قبل النفس فهو أجر، فإذا كان من قبل الله سبحانه وتعالى وإلقائه فى القلب فهو خواطر.

من الأحوال : علم اليقين وعين اليقين وحق اليقين

ومن الأحوال : علم اليقين، وعين اليقين، وحق اليقين : فعلم اليقين على موجب اصطلاح ما كان بشرط البرهان ،وعين اليقين ما كان بحكم البيان، وحق اليقين ما كان بنعت العيان : فعلم اليقين لأرباب العقول، وعين اليقين لأصحاب العلوم، وحق اليقين لأصحاب المعارف.

من الأحوال : الوارد

ومن الأحوال الوارد، وهو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة وعما لا يكون بعلم العبد، وكذلك لا يكون من قبل الخواطر، وهو أيضاً وارد ثم يكون وارداً من

الحق سبحانه وتعالى، ووارد من العلم فالواردات أعم من الخـواطر؛ لأن الخـواطر تختص بينبـوع الخطاب، ومـا يتـضمن معناه والواردات يكون وارد سرور ووارد حزن ووارد قبض ووارد بسط إلى غير ذلك من المعانى.

من الأحوال : لفظ الشاهد

ومن الأحـوال لفظ الشـاهد مـا يكون على قلب الإنسـان، وهو مـا كان الغالب عليه إن كان ذكراً فهو يشاهده، وإن كان العلم غالباً عليه فهو يشاهد العلم عليه، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو يشاهده، ومعنى الشاهد الحاضر فكل ما هو حاضر قلبك فهو شاهده.

من الأحوال : معرفة النفس المطمئنة والنفس اللوامة ، والنفس الأمارة بالسوء

ومن الأحـوال مـعـرفـة النفس المطمـئنة، والنفس اللوّامة، والنفس الأمارة بالسوء. والنفس المطمئنة هى التى اطمأنت بطاعة الله تعالى ولا تطلب مخالفة أمره، واللوامـة هى التى تلوم الرجل على الذنوب وتحمله على

التوبة والإنابة، والنفس الأمارة هى التى تأمر بالسوء، وهى المهلكة لصاحبها، وهى أعظم الحجب تكون بين العبد وربه.

سئل المشايخ عن مداواة النفس، فقالوا مداواتها مخالفتها ويريدون بالنفس ما فى العبد من الأخلاق والخصال المذمومة، وأقبحها إعجابها وتوهمها أن لها عند الله قدراً وعند الناس، ويحتمل أن النفس ليست عين الأخلاق والخصال المذمومة، بل هى لطيفة مودعة فى هذا القلب، وهى محل الأخلاق المحمودة.

من الأحوال : الروح

ومن الأحوال الروح، والروح مختلف فيها عند أهل الحقيقة من أهل السنة، فمنهم من يقول: الروح جسم لطيف مجازى، والروح الربانى أمرى من عالم الأمر.

قال المشايخ: هى أعيان لطيفة مودعة فى هذه القوالب ولها ترقّ فى حال النوم ومفارقة البدن، ثم الرجوع إليها، وأن الإنسان هو الروح والجسد، لأنه سبحانه وتعالى سخر هذه الجملة بعضها لبعض، والحشر

والثواب والعقاب للجملة، والأرواح مخلوقة، ومن قال بعدمها فهو مخطئ خطأً عظيماً، والروح معدن الخير، والنفس معدن الشر، والعقل جيش الروح، والهوى جيش النفس، والتوفيق من الله تعالى مردّ الروح والخذلان مردّ النفس.

من الأحوال : معرفة الأسرار

ومن الأحوال معرفة الأسرار، وهى السرّ، وسر السر، فالسر لطيفة مودعة فى القلب كالأرواح، وهى محل المشاهدة، كما أن الأرواح محل المحبة والقلوب محل المعارف.

وقال المشايخ العارفون: إن السرّ مالك عليه إشراف، وسر السر مالا اطلاع عليه غير الحق، والسر أشرف من الروح، والروح أشرف من القلب، وصدور الأحرار قبور الأسرار، والله تعالى أعلم.

فتوحات أهل النهايات

فتوحات أهل النهايات من البقاء والفناء ودوام اللقاء وصاحبها يداوم على الذكر بعد إفناء أفعال نفسه فى

أفعال ربه بملازمته الشريعة، وصفاته في صفاته بملازمة الطريقة حتى يتجوهر القلب بنور الذكر ويعرف الذكر من كسوة الحروف والصوت وانطبع نوره في مرآة القلب المصفاة من دنس أوصاف البشرية، ثم يسرى إلى الروح ويتجوهر بجوهر الذكر ويتحد الذكر والذاكر فيكون الذكر ذكر الذات، وحينئذٍ تتنور أجزاء الموجودات بنور ذكره؛ لأنه محيط بها وتذكر الله معه، ثم ﴿إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه﴾[1] والذكر الطيب هو الذى لم يكن معلولاً بعلة دنيوية ولا أخروية ويكون خالصاً لله بأن يذكر ببذل وجوده عليه، وفنائه فيه بمباشرة الحقيقة على مقتضى حقيقة قوله تعالى ﴿فاذكرونى﴾ ليبقيه به على قوله تعالى ﴿أذكركم﴾[2] وهو عبارة عن تجلى جماله الموصوف بالمذكور به لذاكريته ليفنيه عنها ويبقيه بمذكوريته، ثم يكون المحو عما يذوقه من تجلى صفات الجمال، ثم المحو الطمس عما يصادفه من تجلى صفات الجلال، فمن فنى

(١) فاطر / ١٠ .

(٢) البقرة / ١٥٢

عن أفعال نفسه فهو باقٍ بأفعال الله، ومن فنى عن صفاته فهو باقٍ بصفات الله تعالى، ومن فنى عن ذاته فهو باقٍ بذات الله تعالى كما قال بعضهم:

وقوم تاهوا فى أرض بقفر وقوم تاهوا فى ميدان حبه

فأفنوا ثم أفنوا ثم أفنوا وأبقوا بالبقاء بقرب ربه

فالأول كما قالوا فناء صفاته لبقاء صفات الحق، ثم فناؤه عن صفات الحق بشهود الحق، ثم فناؤه عن شهود فنائه، باستهلاكه فى وجود الحق وهو فناء الذات فى الذات، وهذه حقيقة ﴿ قل الله ثم ذرهم ﴾[1] الآية.

وصول الذاكر إلى عالم الفناء

قال العلماء بالله: إذا وصل الذاكر إلى عالم الفناء اتصل به تصرف الحق فيه، فصار حال الذكر إكسيراً عزيزاً وانقلبت محاسنه ذهباً إبريزاً، وأودع فيه من أنوار التنزيه والتوحيد ما ينتفى معه كل شرك وتشبيه، وتعطيل وتمويه، فيصفو بصفات التوحيد عن كدورات صفاته الذميمة ويتقدس به عن دنس المخالفات، فحينئذٍ

(١) الأنعام / ٩١.

يدخل فى زمرة السالكين، ويسير فى منازل السائرين إلى أن يبلغ منازل الطائرين تروح إلى الطمأنينة والتسكين ﴿ الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب ﴾[1] .

وصول الذاكر إلى روح عالم الروح

إذا وصل الذاكر إلى روح عالم الروح برز له نعت القدم بتنصيص التخصيص، ومنشور التشريف من باب إضافة ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾[2] فهذه تفضل إضافة القدم إلى الحدث، وتبجيل القديم المحدث، كاد هذا التخصيص والتفضيل أن يمحق عن المحدث قسمة الحدث، وكاد هذا التشريف أن يوصل القديم بالمحدث فكاد بهذه الإضافة أن تثبت القديم بالمحدث، فنزه القدم عن الحدث، وتنزه القديم عن المحدث، وجلت الأزلية عن الوصل، والفصل إضافتك إليه إضافة مزية لا إضافة جزئية، إضافتك إليه إضافة خصوصية لا إضافة بعضية، إضافة قرب لا إضافة نسبة، إضافة كرم لا إضافة قدم، هو منزه عن كل إضافة، وإن قال ﴿ ونفخت فيه من روحى ﴾ .

---

(١) الرعد / ٢٨ .

(٢) الحجر / ٢٩ .

سبحانه "ليس كمثله شىء"

ليس له كل فيقال له بعض، ليس له جنس فيقال له نوع، ليس له قرار فيقال له علا، فمقدّس عن البداية والنهاية والطرفة والمحلية ﴿ ليس كمثله شىء ﴾[1].

وصول الذاكر إلى عالم السر

فإذا وصل الذاكر إلى عالم السر كوشف بأسرار الغيب وزفت إليه عرائس أبكار الأسرار فى الخلوات، أولياؤه تحت قبابى لا يعرفهم غيرى بين موائد ﴿ فأوحى إلى عبده ما أوحى ﴾[2] فى مجلس ستر بينى وبين عبدى بسرّ لا يطلع عليه نبى مرسل ولا ملك مقرب، ثم تأتيه ألطاف القدرة بتحف الحضرة بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ﴿ فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين ﴾[3] ما قرت عين العاشق، أتدرى ما قرة عين العاشق ؟ نظر وجه معشوقه، والتمتع بالنظر إلى جمال جلاله يشق له سمعاً فى قلبه وبصراً فى لبه[4] فيسمع

(١) الشورى / ١١ .
(٢) النجم / ١٠.
(٣) السجدة / ١٧.
(٤) لبّه : عقله.

بغير أذن ويبصر بغير عين فلا يسمع إلا من الغيب ولا يبصر إلا من الغيب، فيصير الغيب عنده عياناً، والخبر عنه معاينة وهو معنى قوله "رأى قلبى ربى".

قال العلماء بالله تعالى: مفهوم إشارة القدم فى متن المصحف المجيد ﴿ ألم ترى إلى ربك ﴾[1] فحينئذ يحذيك (أى يبعدك) عنك ويسلبك منك، فتقع فى القبضة فيوصلك إلى أعلى مراتب التوحيد والمعرفة فى أعلى منازل السر والهمم ما تقصر العبارة والتعبير به، وتعجز الأسرار عن الإشارة إليه وهى نهاية الأقدام، وليس وراء النهاية شيء «لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» فحينئذ يقول: سبحان من لم يجعل للخلق سبيلاً إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته، ولما علم الحق سبحانه وتعالى عجز عن أداء حقه فى حقيقة الوحدانية والفردانية شهد لنفسه بالحق للحق ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو ﴾[2] وحقيقة التوحيد هو البداية، وهو النهاية، والنهاية الرجوع إلى البداية، منه بدأ وإليه يعود، كلمة «لا إله إلا الله» هى البداية وهى النهاية، منه بدأ وإليه يعود فهى الكلمة الطيبة.

---

(١) الفرقان/ ٤٥.

(٢) آل عمران / ١٨.

من أسرار الذكر

مكاشفة القلوب بذكر «لا إله إلا الله»، ومكاشفات الأرواح بذكر «الله الله» ، ومكاشفات الأسرار بذكر «هو هو»، ولا «إله إلا الله » قوّة القلوب، وذكر «الله » قوة الأرواح، وذكر «هو هو» قوّة الأسرار، فـ«لا إله إلا الله » مغناطيس القلوب ، و«الله الله» مغناطيس الأرواح ، و«هوهو» مغناطيس السر والقلب ، والروح بمنزلة درة في صدفة في حقه، أو بمنزلة طائر في قفص في بيت. فالروح بمنزلة القلب، والصدفة والقفص بمنزلة الروح، والدرة والطائر بمنزلة السر، فمهما لم تصل إلى البيت لم تصل إلى القفص، ومهما لم تصل إلى القفص لم تصل إلى الطائر، وكذلك مهما لم تصل إلى القلب لم تصل إلى الروح، ومهما لم تصل إلى الروح لم تصل إلى السر، فإذا وصلت إلى البيت وصلت إلى عالم القلوب، فإذا وصلت إلى القفص وصلت إلى عالم الأرواح، وإذا وصلت إلى الطائر وصلت إلى عالم الأسرار، فافتح باب قلبك بمفتاح «لا إله إلا الله»، وباب روحك بمفتاح قولك «**الله الله**»،

واستنزل طائر سرّك بقرطم قولك «هو هو»، فإن قولك «هو» قوّة لهذا الطائر، وإليه الإشارة بقوله يا موسى: اجعلنى مقام طعامك وشرابك.

توحيد الخواص

فى حقيقة عالم التوحيد المبنى على التفريد بعد أداء حق التجريد، وهو أن يفردك الحق بفردانيته عند استيلاء سلطان الذكر حتى تخرج من قشور الحروف والصوت، فتفنى بسطوة بقية وجودك الذاكر وبقية سلطنة إثباته، فثبوت المذكور عن الذكر بدوام الذكر على مقتضى قوله ﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾[1] فيصير حينئذٍ الذاكر مذكوراً والمذكور ذاكراً، (مع ملاحظة أن لا يصير العبد رب ولا الرب عبد) ويستبدل الأين بالعين والمباينة بالمعاينة والأينية بالوحدانية، وفنى عن نفسه وعن غيره بالكلية فى عين جمع الجمعية مشاهد الذات الحقيقة الصمدية المنزهة عن الجسمية الكشفية واللطيفة وتوابعها ولوازمها بالكلية، ولا يرى إلا الواحد الحق أوّلاً وآخراً وظاهراً

(١) البقرة / ١٥٢.

وباطناً ﴿ ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ﴾[1] هذا توحيد خواص الخواص.

في معرفة أهل المشاهدة الخصوصية، وحقيقة العارف سائر طائر، ثم السير يستدل بالطير، فالسير يكون في مقامات النفس المطمئنة، والطير يكون في مقامات الروحانية العلوية، ثم يستدل الطير بالجذبات السرية: فالجذبة تبعده عن إنابته وتقرّبه لهويته إلى أن تورث الجذبة المشاهدة، فالمشاهدة أحضرته معه وغيبته عنه إلى أن ظهر بالعيان، فالعيان يسحقه والعين تمحقه، ثم يحققه الحق ويزهق باطله، فيكاشف بأنوار غيب الغيب، فيطالع أسرار الملك والملكوت ويتيه في تيه العظموت والجبروت حتى تتجلى له شمس الربوبية عن سماء العبودية، فأشرقت أرض البشرية بنور ربها، ويرقى في المقام إلى تلألؤ نور الألوهية المستفاد من الله تعالى ﴿ الله نور السموات والأرض ﴾[2] ثم نفحة الألطاف الربوبية، وانفتح في عين الشمس باب الهوية، وانغمس فيه المنغمس، ثم لا تسأل:

---

(١) الشورى / ١١ .
(٢) النور / ٣٥ .

قد كان ما كان مما لا أفوه به فظنّ خيراً ولا تسأل عن الخبر

فاستضاءت الآفاق الجسدانية بضوء الشريعة، وظهرت المشكاة النفسانية بلوامع الطريقة وتنورت الزجاجة القلبية بأنوار حقيقة الروحانية وأشرق المصباح الروحية بنار نور الألوهية، وبدت شجرة الوحدانية ونودى موسى السرّ ﴿ أن يا موسى إنى أنا الله رب العالمين ﴾ فانمحت الجهات وتلاشت الصور وانطمست الأبعاض وانعدمت الأجزاء، وسطعت عزة الوحدانية بتجلى نور الصمدانية الربانية، فتدكدك جبل الإنسانية الروحانية صعقاً، فاحترقت الغيرية بنار الغيرية، وارتفعت الشركة وبقيت الوحدة متعززاً برداء الكبرياء والعزة متّزِراً بإزار العلاء والعظمة وحده لا شريك له ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه له الحكم وإليه ترجعون ﴾[1] هذا وإن ﴿ وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى ﴾[2]، وهذا وقت ﴿ وما ينطق عن الهوى ﴾[3] وهو سر "كنت له سمعاً وبصراً ولساناً فبى يسمع وبى يبصر وبى ينطق" ولعمرى إن هذا حال من كوشفت بأسرار "كنت كنزاً

(١) القصص / ٨٨.
(٢) الأنفال / ١٧.
(٣) النجم / ٣.

مخفياً" فلما كوشف الغطاء وذهب الجفاء ودام اللقاء فـ «ما كذب الفؤاد ما رأى ﴾[1] وللقلب ما زوى، فرعى فى رياض المعرفة وشرب من حياض المحبة، وسقى بكأس الجمال بشراب الجلال من بحر الوصال فاستراح من حروب القيل والقال وكثرة السؤال وتغير الأحوال إذ تجافى عن المحاط المطلق به غيب الغيب المحيط المطلق فتحقق له ﴿ ألاَ أنه بكل شىء محيط ﴾[2] .

أبان الحق ليس به خفـــاء وباح السر وانكشف الغطاء

فنفسى زائل والروح نادت فلـم يبق التكبـر والصفاء

بقاء الحق أفنـــانا فأفنى بقاء فنائنا ذاك البقـــاء

تجلت سطوة الجبروت حتى فنينا ثمّ إذفنـــى الفناء

هذا مقام المعرفة بمشاهدة الحقيقة التى تعرف به الرب كما قال صلى الله عليه وآله وسلم «عرفت ربى ولولا فضل ربى ما عرفت ربى» رزقنا الله وإياكم كمال الإيمان وهذا المقام ويثبت أقدامنا على الصراط المستقيم يوم تزلّ الأقدام.

---

(١) النجم / ١١ .

(٢) فصلت / ٥٤ .

ذكر التوحيد

في حل المشكل من التوحيد : التوحيد المبنى على التفريد بعد أداء حق التجريد ، وهو أن يفردك الحق عنه بفردانيته عند استيلاء سلطان الذكر المذكور أوّلاً فى أول الكتاب وهو له كالشرح وهو مقام الذكر ذكر « الله » « لا إله إلا الله » كما قال الله تعالى ﴿ اذكرونى أذكركم ﴾[1] وقال ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[2] وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « ألا أنبئكم بخير أعمالكم وأزكاها عند مليككم وأرفعها فى درجاتكم وخير لكم من إعطاء الذهب والفضة وأن تلقوا عدوّكم فتضربوا أعناقهم ويضربوا أعناقكم . قالوا ما ذاك يا رسول الله ؟ قال ذكر الله »[3] .

الذكر ذخيرة السائرين

واعلم أن الذكر عدّة السائرين بالمقامات القلبية إلى الله تعالى ، وعدّة الطائرين بالمقامات الروحانية المعبر عنها بلطائف الأحوال والأنفاس إلى الوصول إلى الله عز وجل ، ولا يصل أحد إلى الله إلا بذكر الله عز وجل لأنه منه بدأ

---

(١) البقرة / ١٥٢ .

(٢) الأنفال / ٤٥ .

(٣) رواه الترمذى وأحمد وابن ماجه .

وإليه يعود ﴿ إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه ﴾[1] ، وإنّ الذكرِ يوصل الذّاكر إلى المذكور، بل يجعل الذّاكر مذكورا بقوله تعالى ﴿ فاذكروني أذكركم ﴾[2] .

والذكر على ثلاثة أقسام : ذكر بالأقوال، وذكر بالأعمال، وذكر بالأحوال، فاذكروني بالأقوال بلفظ الاستعفاف عن العصيان أذكركم بالرحمة والغفران، بيان قوله تعالى ﴿ والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ﴾[3] فاذكروني بأعمال الأركان من خلوص الإيمان أذكركم بحياة الجنان ودخول الجنان بيانه قوله ﴿ من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمنٍ فلنحيينه حياة طيبة ﴾[4] الآية، فاذكروني كثيراً بالأشباح والأرواح أذكركم بالنجاح والفلاح ، بيان قوله تعالى ﴿ واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون ﴾[5] فاذكروني بالأحوال وهي الشوقِ والمحبة أذكركم بالقبول، بيانه قوله « من تقرّب إليّ شبراً تقربت إليه ذراعاً »[6] ، اذكروني

---

(١) فاطر / ١٠ .

(٢) البقرة / ١٥٢ .

(٣) آل عمران / ١٣٥ .

(٤) النحل / ٩٧ .

(٥) الأنفال / ٤٥ .

(٦) رواه أحمد في مسنده.

بالتضرع والابتهال أذكركم بالفضل والاستقبال بيانه قوله « ومن أتانى يمشى أتيته هرولة » فاذكرونى بالتعظيم أذكركم بالتكريم، فاذكرونى ذكراً فانياً أذكركم ذكراً باقياً، فاذكرونى بصفاء السر أذكركم بخالص البرّ، فاذكرونى بترك الجفاء أذكركم بحفظ الوفاء، فاذكرونى بترك الخطأ أذكركم بأنواع العطاء، فاذكرونى من حيث أنتم أذكركم من حيث أنا، فاذكرونى ببذل الوجود والفناء أذكركم بنيل الشهود والبقاء، وهذا الذكر هو حقيقة قوله « وإن ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى »، وهذا هو الذكر الحقيقى الذى يجعل الذاكر مذكوراً والمذكور ذاكراً بأن يجعل الذاكر والذكر والمذكور واحداً كما قال الله تعالى ﴿ لمن الملك اليوم لله الواحد القهار ﴾[1] وقال بعضهم :

رق الزجاج وراقت الخمر ... فتشابها فتشاكل الأمر

فكأنما خمر ولا قدح ... وكأنما قدح ولا خمر

تجد مثل هذا فى حال الفراش للشمع، فإن الشمع يقول للفراش : اذكرنى فى نفسك أذكرك فى نفسى فذكر الفراش للشمع فى نفسه أن يبذل نفسه لشعلة

---

(١) غافر / ١٦ .

الشمع، وذكر شعلة الشمع فى نفسه بالحرقة عليها وبذكره الشمع باشتغال نفس الفراش فى نفسه فلا يبقى التمييز بين الشمع والفراش ،وإن طلبت الفراش وجدت الشمع، وإن طلبت الشمع وجدت الفراش كما قيل :

أنا من أهوى ومن أهوى أنا   نحن روحان حللنا بدناً

وهكذا أيضاً :

فمتى أبصرتنا أبصرتهم   ومتى أبصرتهم أبصرتنا

وما كنت ممن يظهر السرّ إنما   عروس هواها فى ضميرى تجلت

فشاهدتها فاستغرقتنى فكرة   فغبت بها عن كلّ كلى وجملتى

وهذا من بركة معنى معنوىّ ﴿ كل شيء هالك إلا وجهه ﴾[1] ﴿ كل من عليها فان ﴾[2] ﴿ كل نفس ذائقة الموت ﴾[3] سبحان الباقى بعد فناء خلقه، والصوفية ماتوا قبل أن يموتوا وأفنوا نفوسهم وغيرهم من قبل أن يفنوا ﴿ ألا له الخلق والأمر ﴾[4].

اختلاف الناس فى السماع

قال العلماء بالله تعالى ومشايخ الصوفية : الناس

(١) القصص / ٨٨ .
(٢) الرحمن / ٢٦ .
(٣) آل عمران / ١٨٥ .
(٤) الأعراف / ٥٤ .

مختلفون فى الحس وأهل الحس مختلفون فى الفهم، وأهل الفهم مختلفون فى الذوق، والصوفية لهم فى الفهم والحس والذوق ما لغيرهم، وإذا تواجد الصادق منهم، عند وجوده مالا يقتضى وجوده عنك من ليس يفهم فهمهم ويذوق ذوقهم، فلا ينبغى أن ينكر عليه لأن لهم فى كل فهم استبصاراً، وفى كل نظر عظة واعتباراً، وفى كل سكون أنواع من الفكر، وفى كل كلام أصناف من الحكم، وكم مشاهد يشهدونها، وكم مواجيد يجدونها. وقال العلماء بالله تعالى: قد يطرب حسن الصنعة السامع أو تذكره أو يشهد عند ذكره جمال الصانع، ومن لم يصل منهم إلى مشاهدة الجمال استدل بإتقان الصنعة وبداعة حسنها على الحكمة البالغة للصانع والكمال، وشاهد جميع ما فى الوجود من الحسن الحسان لصانع حكيم، جواد ماله ثان فى الجميل والجمال، جوده عظيم الشأن. قال العلماء بالله عز وجل العارفون : مثل الشيخ الإمام شهاب الدين السهروردى وغيره: فالسامع من الشعر بيتاً يأخذ معه معنى بذكر

ربه . إما فرحاً بالله أو خوفاً أو انكساراً أو افتقاراً ، كيف تقلب قلبه فى أنواع ذلك ذكراً لربه ، ولو سمع صوت طائر طاب له سماع ذلك الصوت ، وتفكر فى قدرة الله تعالى وتسوية حنجر الطائر وتسخير خلقه ومنشأ صورته وتأديته إلى السماع كان فى جميع ذلك الفكر مسبحاً مقدساً ، فإذا سمع صوت آدمى وحضره مثل ذلك الفكر ، وامتلأ باطنه ذكراً أو فكراً كيف ينكر ذلك .

من معانى السماع

السماع على ضربين :

الضرب الأول : أعنى ما هو مباح ، وهو لمن لاحظ له إلا التلذذ بالصوت الحسن واستدعاء السرور والفرح أو يتذكر به غائباً أو ميتاً فيستثير حزنه فيستريح بما يسمعه .

الضرب الثانى : هو المستحب ، وهو لمن غلب عليه حب الله - تعالى - والشوق إليه ، ولا يحرّك السماع منه إلا الصفات المحمودة وتضاعف الشوق إلى الله -تعالى- واستدعاء الأحوال والمقامات اللطيفة ، وأما من يسمع بغير قلب ولا يعرف مباحاً ولا مندوباً ، فظهرت عليه

صفاته الذميمة وذكرته حظوظه الخسيسة وطمع الدنيا وحرامها واستثار سماعه وسواسه وهواه وذنوبه، فهذا حرام، وأما من سمع فظهر له ذكر ربه، والفكر فى عجائب صنعه ، وخوّفه ذنوبه فذكر به آخرته فأنتج له ذلك الفكر شوقاً إلى الله -تعالى- وخوفاً منه ورجاء لوعده أو حذراً من وعيده فسماعه ذكر من الأذكار مكتوب فى صحائف الأبرار.

أثر السماع

اعلم أن القلوب عند السماع أوعية، والآذان آنية، والنغمات أشربة مروية، لأن الأصوات تحمل النغمات من الأغانى إلى الأوانى، فلولا صفاء الأوانى ما ذاقت المعانى، ولولا صحة المعانى ما كانت المبانى، فإذا وصلت الأشربة إلى أوانيها والأوانى هى الأوعية وهى القلوب، فإن كانت صافية أثارت الأخلاق الحميدة، والأحوال الشريفة، والمقامات المنيفة، وإن كانت كدرة خبيثة أثارت القسوة الخبيثة والذنوب والخطيئة،وإن كانت لا صافية ولا خبيثة ولا متواضعة محسنة غير فاسدة أثارت المباحات، ولا

على القولين لوم؛ لأن القول ساقى مشرعات الأغانى والنغمات التى تحملها الأصوات الأوانى القلوب المقتبسة لأحوال المعانى من حضرات المثانى على قدر صفاء القلوب وكدرها إن كانت مشحونة بذكر الله تعالى أو الفكر فى عجائب ورائع صانع صنيع الله أو مشحون باللهو أو الذنوب :

ما حيلة الساقى إذا طاف على ... ندمائه بالخمرة المخللة

قلوبنا أوعية فكلما ... طاب الوعا طاب له ما حصله

قلب بذكر الله أضحى روضة ... وآخر باللهو صار مزبلة

ما منبت الورد كنبت غيره ... ولا شذا المسك كريح البصلة

لو سقى الحنظل شهداً دائماً ... ما أنبت الحنظل إلا حنظله

أهل الحقيقة هم العارفون بالله تعالى

أهل الحقيقة هم العلماء بالله أهل المعارف المتعلقة بالله وأسمائه وصفاته، وعلوم المعارف أشرف العلوم، والحقيقة عندهم هى مشاهدة أنوار أسرار الربوبية، ولها طريقة هذا عزائم الشريعة، فمن سلك تلك الطريقة

وصل إلى الحقيقة، فالحقيقة نهاية عزائم الشريعة، ونهاية الحقيقة غير مخالفة لعزائم الشريعة، وقد ضرب العلماء العارفون بالله -تعالى- للشريعة والحقيقة أربعة أمثلة فى الشريعة والحقيقة وبيان كون الشريعة هى الأصل: كالبحر والمعدن، واللبن والشجر، والحقيقة مستخرجة كالدّر والتبر والزبد والسمن.

قال خطيب الدنيا والآخرة ابن نباتة فى معنى التنزيه فى بعض خطبه: مالى أرى الأشياء من غير حلول المطالع عليها من غير أفول، هذا تعجب منها جملة من المشايخ الأجلاء المتقدمين، وكل من اعتقد الحلول والاتحاد فقد كفر.

وجلّ الجناب المقدّس عن درك العقول: وعز إجلال المنزّه عن رأى الحلول، جناح العقل مقصوص عن كنية الوصول. لقد عميت هناك أبصرة الفحول، ولا يدرك بإدراك الحصول، وصلى الله على أحمد الرسول، وعزّ سرادق الكبرياء عن الحصول بالوصول، وكرم عنقاء الوصول عن الاصطياد بالحصول.

ولكن الشأن مع عظيم شأنه وعزيز برهانه فى جعل الله للسائرين إليه منارات ورتباً، وللطائرين به مقامات روحانيات، فمبلغهم ذلك على ما طابت لهم ريح العناية، وسارت بهم على فلك الاستقامة حتى وصلوا إلى معادن الهداية فنزلوا ليحصلوا، وانفصلوا ليتصلوا، فهبت نفحات ألطاف الربوبية فانحرقت حجب أستار البشرية عن وجه العبودية عند سطوة كتاب أوصاف الهيئة، فكشف عن غطاء ظلمة الفكرة كوشفوا بأنوار المعرفة.

والحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله، والحمد لله رب العالمين.

تم الكبريت الأحمر والإكسير الأكبر
فى معرفة
أسرار السلوك إلى ملك الملوك

الفهرست

الموضوع	الصفحة

تابع الفهرست

تابع الفهرست

تابع الفهرست